مع أبي تمام في آفاقه :

قصيدة النار *

للأستاذ محمود عزت عرفة

المعتصم والأفشين :

لم يكن المعتصم رجل علم كأخيه المأمون ، وإنما كان جنديا قديرا يحسن اصطفاء القواد وتخير رجالات الحرب . وقد وصف نفسه في بعض مجالسه بأنه « الخليفة الأمي » فلم يعد وجه الحق في شيء

وكان موقف الدولة العباسية وعوامل تكوينها قد قضت عليها أن تستجلب العناصر الغريبة إلى جيشها ، من فرس وترك وغيرهما ، تستعين بهم على كبح جماح العرب من فلول بني أمية وأشياع بني هاشم

فلما جاء أبو إسحق المعتصم أبى في ذلك على أسلافه ، حتى لأسقط أسماء العرب من ديوان الجيش مكتفيا بالأتراك والأبناء ، وبجند اجتلبهم من فرغانة وأشروسنة (١)

ولما نبت بغداد بأولئك الجند ، وآذوا أهلها وتأذوا بهم ، اختط لهم المعتصم حاضرته الجديدة سامرا (٢) ، وأبانهم بالأزياء الجديدة عن سائر جنده ، ورفع من مراتبهم وأقدارهم ، وجعل بأيديهم مستقبل الخلافة

وكان الأفشين (حيدر بن كاوس) أحد هؤلاء الذين اصطفاهم المعتصم ، وهو فارسي الأصل من أبناء أشروسنة . ولقب الأفشين كان يطلق على كل من ملك في تلك الناحية

والثابت أن الأفشين من أبناء الملوك الذين حكموا هنالك ؛ وقد كانت منزلته رفيعة لدى قومه حتى اليوم الذي قتل فيه ، بل إن إفراطهم في الولاء له كان إحدى التهم التي ووجه بها وأدت إلى أن يسلب نعمته ويصلب

ويرجع اتصال الأفشين بالمعتصم إلى ما قبل توليه الخلافة بسنوات . ففي عام ٢١٣ هـ عقد المأمون لأخيه لواء الولاية على الشام ومصر . وفي نفس السنة اندلع بمصر لهيب الثورة . ووثب عرب القيسية واليمانية بعامل المعتصم فقتلوه ، وهو عميرة بن الوليد الباذغيسي الذي رثاه أبو تمام بإحدى بوا كير شعره وهو بمصر فقال :

أعيدي النوح معولة أعيدي	وزيدي من بكائك ثم زيدي
وقومي في نساء حاسرات	خوامش للنحور وللخدود
هو الخطب الذي ابتدع الرزايا	وقال لأعين الثقلين : جودي
ألا رزئت خراسان فتاها	غداة ثوى عمير بن الوليد !

ومرت بمصر أحداث جسام استدعت أن يأتي المعتصم بنفسه فيسكن من ثائرها . ولما غادرها تجددت أسباب الفتنة فلم يجد بدا من أن يبعث إلى مصر بأفضل رجاله عنده وهو الأفشين . فقدمها في ذي الحجة عام ٢١٤ هـ (٣)

ولا تكاد كتب التاريخ تشير إلى الأفشين بشيء قبل أن تجرى هذه الحوادث ؛ فما لاشك فيه أن تلك أول مهمة خطيرة يعهد إليه المعتصم بها

وقد استمر بمصر يقاتل القوم في وثبات متتابعة حتى قدم إليها المأمون بنفسه في المحرم من عام ٢١٧ هـ

وتنقطع أخبار الأفشين بعد هذا . ولعله عاد في ركاب المأمون ، ثم التحق بموضعه من حاشية أميره المعتصم . على أن المأمون توفي في رجب سنة ٢١٨ هـ ، وخلفه المعتصم بعهد منه . فخاض غمار حربين كبيرتين استغرقتا أعوام حكمه : أولاهما حرب الخرمية في الشرق ، وقد انتهت بفتح (البذ) معقل بابك الخرمي واعتقالة وقتله والثانية حرب الروم في الغرب — وكانوا قد تحركوا على صدى حوادث الخرمية — وتمت هزيمتهم بفتح (عمورية)

* تحليل أدبي لقصيدة أبي تمام في هجاء الأفشين قائد المعتصم وذكر مقتله وصلبه . مع بحث تاريخي يوضح بعض ملابسات هذا الحادث ، وإشارات الشاعر اليه

(١) بلد كبير فيما وراء النهر بين فرغانة وسمرقند ، واسم إقليمها الصغد — أنظر معجم البلدان

(٢) الفخري لابن طباطبا — شرح السبب في بناء سامرا ص ١٧٣

(٣) النجوم الزاهرة : ج ٢ ص ٢١٢

أقوى حصونهم على حدود المملكة الإسلامية فى آسيا الصغرى

وكان الأفشين هو بطل الخلافة المجلى وفارسها العلم فى هاتين السلسلتين من الحروب

حرب الخرمية:

والخرمية قوم من المجوس كانوا يدينون بمذهب التناسخ ، ويبيحون المحرمات من تناول الخمر وزواج ذوات المحارم وسائر ما تستجيب إليه الأهواء

وكان رئيسهم جاويدان بن سهل صاحب جبال البذ ، الذى خلفه عند موته بابك بن بهرام مدعيا أن روح جاويدان حلت فيه . وقد حدث هذا فى سنة ٢٠١ هـ والمأمون لا يزال فى أوائل حكمه مقيما بمدينة مرو لم يبرحها بعد إلى بغداد

ويقول ابن الأثير فى تاريخه (الكامل) إن تفسير جاويدان : الدائم الباقى ، ومعنى (خرم) الفرح . . قال : وهى مقالات المجوس . والرجل منهم يتزوج أمه وأخته وابنته ، ولذا يسمونه دين الفرح ، ويعتقدون بمذهب التناسخ ، وأن الأرواح تنتقل من حيوان إلى غيره (٤)

وقد جد المأمون فى حرب بابك حتى استعصى عليه أمره ؛ وأشخص إليه جندا كثيفا على دفعات ؛ فانهزم أمامه من قواد الخلافة على التوالى ، بين ناج وقتيل وأسير : يحيى بن معاذ ، وعيسى بن محمد بن أبى خالد ، وعلى بن صدقة ، وأحمد بن الجنيد الإسكاف ، وإبراهيم بن الليث بن الفضل ، ومحمد بن حميد الطوسى. وكان ذلك فى الفترة ما بين عامى ٢٠٤ ، ٢١٤ هـ

ومن هنا نفهم معنى ماسجله المأمون فى وصاته وهو يحتضر ، لأخيه أبى إسحق المعتصم حيث يقول : والخرمية فأغزهم ذا حزامة وصرامة وجلد ، واكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة . فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك . واعمل فى ذلك عمل مقدم النية فيه ، راجيا ثواب الله عليه (٥)

ولم يأل المعتصم فى محاربة الخرمية جهدا ، فسير إليهم قائده إسحق بن إبراهيم المصعبى سنة ٢١٨هـ وعقد له الولاية على الجبال ، فأوقع بفريق منهم فى همذان وعاد ومعه منهم أسرى . وأعقبه المعتصم بالأفشين حين تبين له استفحال خطبهم ، وانضواء الكثيرين تحت لواء دعوتهم . فأوقع بهم عند حصن أرشق ، ونجا بابك هاربا إلى « موقان » ثم أرسل إلى البذ فجاءه مدد تقوى بهم وعاد إلى حصنه

وما زال الأفشين يتنقل من موضع إلى موضع ، وهو يسد المسالك ، ويستجلب الميرة ، ويرم الحصون ، ويبث الأرصاد والعيون ، حتى أوفى على حصن البذ فحاصره ، واستولى عليه فى رمضان سنة ٢٢٢ هـ

وقد كان لهذا النصر أثره المدوى فى نفوس المسلمين ، فشرفت به مدائح الشعراء وغربت تنوه بفضل الأفشين وقواده ممن أعانوه على هذا العمل الجليل

يقول أبو تمام — باقتراح من عبد الله بن طاهر — فى وصف بلاء الأفشين ، وعظم تدبيره فى هذه المواقع :

لقد لبس الأفشين قسطلة الوغى ... مخشا بنصل السيف غير موا كل
وجرد من آرائه حين أضرمت ... له الحرب حدا مثل حد المناصل
وسارت به بين القنابل والقنا ... عزائم كانت كالقنا والقنابل
رأى بابك منه التى لاسوى لها ... سوى سلم ضيم أوصفيحة قائل

ويقول فى مدحه بعد عودته ظافرا ، من نونية مطلعها : بذ الجلاد البذ فهو دفين :

قاد المنايا والجيوش فأصبحت ... ولها بأرشق قسطل عثنون
فتركت أرشق وهى يرق باسمها ... صم الصفا ، فتفيض منه عيون
لو تستطيع الحج يوما بلدة ... حجت إليها كعبة وحجون
لاقاك بابك وهو يزأر ، وانثنى ... وثبيره قد عاد وهو أنين
لاقى شكائم منك (معتصمية) ... أهزلن جنب الكفر وهو سمين

ويقول فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف الطائى — أحد قواد الأفشين — وكان قد أنزله بموضع يقال له (خش) :

أبلغ محمدا الملق كلا كله ... بأرض خش أمام القوم قد لبجا

(٤) الكامل لابن الأثير : ج ٦ ص ١٢١
(٥) تاريخ الطبرى : ج ١٠ ص ٢٩٤

ما سر قومك أن تبقى لهم أبدا
وأن غيرك كان استنزل الكندجا (٦)
أضاء سيفك ، لما اجتث أصلهمو
ما كان فى جانبى تلك البلاد دجى
ويوم أرشق والآمال مرشقة
إليك ، لا تنبغى عنك منعرجا
أرضعتهم خلف مكروه فطمت به
من كان بالحرب منهم قبله لهجا

ثم يصف مداهمته بابك فى موقان حتى تخلى عنها هاربا إلى البذ ، كما ذكرنا قبل :

وفى موقان كنت غداة ماقوا أشد قوى من الحجر الصلود
مشت خببا سيوفك فى طلاهم ولم يك مشيها مشى الوئيد
سيوف عودت سقيا دماء بهامة كل جبار عنيد
ويوم البذ لما بيق حقد على الأعداء ، فى قلب حقود
حططت ببابك فانحط لما رأى أجل الشقى مع السعيد
فما ندرى ؛ أحدك كان أمضى غداة (البذ) أم حد الحديد ؟

ويقول مخاطبا ابن يوسف أيضا من دالية أخرى :

عطفت على رغم المعاعزم بابك بعزمك عطف الأتحمى المعند
وموقان كانت دار هجرته فقد توردتها بالخيل أى توردد
حططت بها يوم العروبة عزه وكان مقيما بين نسر وفرقد

... ويخاطبه فى دالية ثالثة فيقول :

تركت منهم سبيل النار سابلة فى كل يوم إليها عصبة تفد
كأن بابك بالبذين بعدهمو نوى أقام خلاف الحى أو وتد
وأهل موقان إذ ماقوا فلا وزر أنجاهم ومنك فى الهيجا ولا سند
لم تبق مشركة إلا وقد علمت إن لم تنب ، أنه للسيف ماتلد

ويقول أبو تمام فى مدح أبى دلف — القاسم بن عيسى العجلى — وكان قائد فرقة المطوعة تحت إمرة الأفشين :

إن الخليفة والأفشين قد علما من اشتقى لهما من بابك وشقى
فيوم أرشق والهيجاء قد رشقت من المنية رشقا وابلا قصفا

فكان شخصك فى أعقابها علما وكان رأيك فى ظلمائها سدفا
نضوته دانيا من كنانته فأصبحت فوزة المقبى له هدفا

وكان بابك قد نجا بنفسه بعد سقوط معقله ، ومضى هاربا إلى بلاد الروم عن طريق أرمينية ، فأذكى الأفشين وراءه العيون وبث الأرصاد فى كل مكان حتى قبض عليه . وإلى هذا يشير أبو تمام بقوله :

ورجا بلاد الروم فاستعصى به أجل أصم عن النجاء حرون
هيهات لم يعلم بأنك لو ثوى بالصين لم تبعد عليك الصين !

وكان الذى قبض على بابك سهل بن سنباط — أحد بطارقة أرمينية — عند اجتيازه بأرضه متخفيا :

وأزمع نية هربا فحامت حشاشته على أجل بليد
تقنصه بنو سنباط أخذا بأشراك الوثائق والعهود
ولولا أن ربحك ذربتهم لأحجمت الكلاب عن الأسود

ولكى نعرف حقيقة ذكر الكلاب والأسود هنا نقول إن الأفشين كان قد ألح على ملوك أرمينية وبطارقها بوجوب التحرى عن كل من يجتاز أرضهم وحثهم على القبض على بابك ووعدهم فى ذلك ومناهم . . فلما مر بابك بأرض ابن سنباط عرف حقيقته ولكنه جبن عن القبض عليه . فتملقه بالخضوع والطاعة واستضافه فى حصنه ، ثم كاتب الأفشين بخبره . فأرسل الأفشين من استوثق له من صحة ذلك ثم بعث بأبى سعيد مع جند فقبضوا عليه . ولما تحقق بابك خيانة ابن سنباط أغلظ فى شتمه وقال له : يعتنى اليهود بالشىء اليسير . لو أردت المال وطلبته لأعطيتك أكثر مما يعطيك هؤلاء

ولما مضوا ببابك سير معه ابن سنباط ابنه معاوية ، فأمر له الأفشين بمائة ألف درهم ، وأمر لسهل بألف ألف درهم استخرجها له من أمير المؤمنين ، ومنطقة مرقة بالجوهر ، وتاج البطرقة . فبطرق سهل بهذا السبب (٧) »

وقال صاحب النجوم الزاهرة : كان المعتصم قد جعل لمن جاء به حيا ألفى ألف درهم ، ولمن جاء برأسه ألف ألف درهم . فجاءه

(٦) قال ياقوت : الكندج اسم حصن وناحية بأذربيجان من منازل بابك الخرمى

(٧) الطبرى : ج ١٠ ص ٣٣٣